بقايا إنسان

خواطر

عبدالرحمن العربي

العنوان: بقايا إنسان

النوع: خواطر أدبية

المؤلف: عبدالرحمن محمد العربي

مصمم الكتاب: عبدالرحمن العربي

إهداء

إلى نفسي أولًا، ثم يأتي الآخرون...

إلى روحي التي أرهقتها الأيام، وسارت بلا توقف نحو مجهول لم تختره.

إلى عائلتي، التي لم تترك لي طريقًا مفتوحًا، بل هدمت كل الجسور.

إلى طفلتي الأولى، التي لم تولد بعد، لكنني أراها في أحلامي كل ليلة.

إلى أصدقائي ورفاقي، أولئك الذين بقوا وأولئك الذين رحلوا، إلى من خان وإلى من ظل وفيًا.

إلى قارئ هذا الكتاب... ستجد ما تبحث عنه هنا، إن كنت تبحث عن الوجع، عن الألم، عن الوحدة والخذلان، عن فقدان الأحبة.

هنا، لا وجود للأمل. هنا، لا شيء سوى الكلمات التي تشبه الندوب، سوى الصمت الذي يملأ الفراغات. وهنا، أخيرًا.

ختامها مسك... إلى عزيزي جلد الذات.

أمنيتي الوحيدة... أن لا تصاب بالاكتئاب.

"أريد أن أرحل... لكنني أنتظر أحدًا يمنعني. أريد أن أنسى... لكن الذكريات تتمسك بي كأنها تعرف أنني بلاها لا شيء."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

" أين أنت؟ "

أسكن في ظلام الكهف، أجلس وحيدًا، محاطًا بصمت مُطبق يخنقني. جدرانه المتآكلة أشبه الانوار تراقص في الظلام كأرواح مظلومة، ورائحة الرطوبة تملأ المكان كالعطر الحزين.

قطرات الماء تتساقط من السقف كدموع السماء، تذكّرني بكل ما فقدته من أحلام وأمان. أشعر بالوحدة التي تضيق صدري، وتحول الليل إلى جحيم من العزلة والوحدة.

أفكر في كل ما حدث، في كل ما فقدته، في كل ما أتمناه. دموعي تتساقط كأمطار الخريف، تحمل معها ألمي ووجدي. الظلام يحيط بي، يخنقني، يذكّرني بكل ما أتمناه.

هذا القلب المكسور، الذي يسكن صدري، يحب رائحة الدموع، تجعله ينسى الآلام. لكنه لا ينسى الخسارة، لا ينسى الشوق. أضع قلمي على أول سطور الورق، لتنهش وتهشم السطور عوضاً عن قلبي الجريح.

" فقط أريد الذهاب "

كيف أخرج من هذا البيت اللعين؟ ألا يكفيني ما أصبحت عليه؟ ألا يكفي كل هذا الألم الذي يعبرني ولا يرحل؟

عيناي العسليتان تورمتا من البكاء، لم يعد في وجهي شيء يشبهني، كأن العمر اختطفني وألقى بي في هاوية لا نهاية لها. غزلان قلبي، تلك التي كانت تعدو في السهول بحرية، تتكئ الآن على عكازات من فرط الهموم، تتعثر بين الطرقات التي لم تعد تعرفها.

شعري الطويل، الذي كان يمتد بين المدن ويربط بين الأزمنة، سقط، لم أعد أعرف إن كان بفعل المرض أم الحزن. الأرق يقيدني، يثقل جفوني، يمنعني من النهوض، لكنه لا يساعدني على الموت أيضًا، وكأنني عالقة بين الحياة والموت، بلا وجهة.

شفتاي الزرقاوان ترفضان الحديث، والقلب، ذاك القلب المسكين، يرفض الصمت. يصرخ، ينادي، لكنه لا يُسمع، فيموت شيئًا فشيئًا.

أنا هنا أمرض، وهناك أمرض. لا فرق. فإلى أين أنت ذاهب؟ لا أدري. ماذا تريد؟ لا أريد سوى أن أذهب. فقط، أن أذهب.

"غريبٌ في وطني"

لا مكان لي هنا، فقط... فقط كلما بقيت، يضيق نفسي أكثر، كأن الهواء يضنّ عليّ بأنفاسي. أرغب في الرحيل بكل ما فيّ من قوة، لكن الحياة عصفت بنا إلى هنا، ألقت بنا في هذا المكان، وتركتنا مجبرين على البقاء، مجبرين على الاستمرار، على الدوران في دائرة كلما أتممناها اتسعت أكثر، كأنها تطبق علينا حتى أنهكت أرواحنا واستهلكت أجسادنا.

لا أرغب حتى بطلب البقاء، لا أريد أن أساوم الحياة على لحظة أخرى هنا، أتمنى فقط أن أغادر الآن، لا بعد دقائق، لا بعد أيام. لكنني... ما زلت هنا.

كلما هممت بالكلام، تراجعت، كأن لساني لم يعد يجد الكلمات التي تنتمي إليه، كأن اللغة نفسها هجرتني. فقط ابتسامة باردة وبعض المرح الزائف، أختبئ في عالمي الخاص، أغرق فيه حتى لا أرى هذه الحياة.

كل شيء تغيّر منذ طفولتي. المكان يشبه المكان، لكنّه ليس هو، والناس يشبهون من عرفت، لكنّهم ليسوا هم. الأصدقاء؟ لم يعودوا أصدقاء، والعائلة؟ تفتتت كأنها لم تكن. كلٌّ انخرط في طريقه، مضى دون أن يلتفت، ولم يبقَ إلا أنا... وحيدًا في مكان لم يكن لي يومًا، ولن يكون.

"نحن في مدينة أحلامي"

أنا بخير، ولكنني أسير حافي القدمين. أصبحت هذه العادة جزءًا من حياتي، وكأنها تلاحقني في هذا الخراب الذي أصبح موطني. منذ أسابيع وأنا أحمل فردة حذاء ممزقة، تذكارًا من زمن كان فيه الأمل يملأ كل زاوية، أما الآن، فكل زاوية أصبحت مظلمة، وكل حلم أصبح أطلالًا. أبحث عن فتات رغيف عفن ملقى في الزوايا المظلمة التي يتجنبها الجميع، في مكان لا يمر به إلا الضعفاء مثلي.

لا أتحدث عن الجوع أو فقر المال فقط، فذلك أصبح أمرًا اعتياديًا. بل أتحدث عن فقر الروح. رئيس المدينة، الذي اخترناه يومًا ليكون قائدًا لنا، أصبح سارقًا بلا ضمير. سرق ما تبقى من أحلامنا حتى اختفت. جيوبنا فارغة، والهموم تتراكم على صدورنا كأغلال ثقيلة، لا نعرف كيف نتخلص منها.

أستفيق على صراخ أطفال، ثيابهم تمزقت أكثر من قلوبهم التي لم تعد تعرف الأمل. ثم ضحكت، لكن كانت ضحكتي مشوهة، عندما رأيت امرأة تبكي، تعرض جسدها مقابل نصف رغيف، لتطعم أطفالًا ليسوا أطفالها. كان الناظر يظن أن نصف رغيف أثمن منها ومن أطفالها في هذا العالم. كيف وصلنا إلى هذه الدرجة من الانكسار؟ كيف يمكن للإنسان أن يصبح سلعة في سوق الجوع؟ لم يعد هناك فرق بين الجوع والذل. كيف يسخر منا القدر هكذا؟ كيف نحيا في هذا الجنون؟

أطفال يضحكون بعد أن انتصروا على بؤس الجوع، والدهم نائم في زاوية، يبتسم من لهوهم ولعبهم، ابتسامة مريرة كما لو كان قد غرق في بحر من الألم. لا يصرخ، لا يتألم. ما الذي حدث لهذه المدينة التي كان من المفترض أن تكون ملاذًا للأحلام؟ هل كانت أحلامنا حقًا؟ أم كانت مجرد أوهام؟

نحن في مدينة أحلامي، لكن أين المدينة؟ أين الأحلام؟ أصبحت هذه المدينة خرابًا مليئًا بالزيف والأكاذيب. الجرائد تقول إن هناك أطنانًا من الخبز ملقاة على رفوف

المتاجر، لكنهم نسوا أن يذكروا أن هناك من يعجز عن شراء كسرة خبز. الأسعار ترتفع كالسحاب، ولكن لا أحد يستطيع أن يصل إليها. لا أحد يفرح بالكلمات الفارغة في الصحف. كم هو قاسي هذا الواقع!

هل هناك من "الحثالة" يكتب هذه التفاهات في الجريدة؟ لأنني أرى الناس جائعين، الكل جائع هنا، فكيف يُلقى الخبز في المتاجر؟ ما هذه المهزلة؟ هل أنا مجنون لأني أستمر في الحديث عن هذا الخراب؟ ربما أنا مجنون لأنني أكتب في هذا الظلام، لكنني لا أرى إلا الظلام.

سأتحدث عن شيء آخر، بعينين ترى الألم. امرأة في الأربعينيات، عرضت جسدها مقابل نصف رغيف. هل هذا غباء؟ أم هو الرخص بعينه؟ أم كانت أمًا رحيمة تذكرت عندما مات أطفالها جوعًا؟ عرضت جسدها لتطعم أطفال الآخرين الذين تُركوا في الشوارع بلا مأوى، بلا طعام، بلا حياة.

وهكذا كان والد هذه الفتيات المسكينات، قطع قدمه أمامي، يطعمهم وهو يبتسم، بينما نيران الألم تأكل قلبه. هذه هي الحسرة! هذه النظرة المكسورة، التي تظهر على وجوههم. أتذكر نظرة زوجة لا هم لها سوى التذمر، ولكنها تذبل أيضًا من الداخل، لأن الجوع لا يرحم أحدًا. هنا، أرى عيبي، فأنا أرى كل شيء بأم عيني. كيف لي أن أنتظر فردة حذائي التي تتراقص أمامي لأكلها؟!

أنا... أنا بخير... أنا فقط جائع، جائع إلى ما تبقى من كرامتي.

" الانتظار"

في الآونة الأخيرة، لم أعد أجيد شيئًا سوى الانتظار. أجلس في ملله، في بطئه الذي يبتلعني، في ثقله الذي يطوّق أيامي. كان الوقت سريعًا معكِ أنتِ فقط، يركض بلا حساب، كأنه يخشى أن يتركنا وحدنا.

لكن الآن، هنا أو هناك، أجلس وأراقب بعيون حزينة، عيون دمعة رفضت قبلاً أن تنزل. ألا ترين؟ لقد ذبلت الورود في يدي، كما ذبل قلبي وصدره، فلماذا لا يزال داخلي الاشتياق؟

أنا أشتاق. هل تجيبين يا ساحرتي؟ يا سحري العجيب؟ يتفوقون في الغياب،

وأنا لا أملّ من الانتظار.

" لا أعلم "

لا أعلم لماذا تأخذني قدماي إلى هذا الطريق مجددًا، لماذا تعيدني كل الدروب إلى ذات العتبة التي غادرتها بقلبي المثقل.

ذلك البيت... الذي لعنته بكل ما فيَّ، والذي أقسمت ألا أعود إليه، والآن... لا أعلم! هل هو الحنين؟ أم أنني اشتقت رغم كل شيء؟

اشتقت لضجيجه، لذلك الدفء الذي لم أجده في أي مكان آخر.

أبي...

كم أود أن أحتضنك الآن، أن أدفن رأسي في صدرك كما كنت أفعل طفلًا.

آسف لأنني رحلت دون أن أفعل، لا أعلم لماذا توقفت قدماي حينها، لماذا تجمد لساني ويداي، كنت أريد حضنك فقط... هذا كل ما كنت أريده.

أمي...

كم أود أن أقبّل جبينك كما كنت تفعلين لي، كم أشتاق لصوتك الذي كنت أظنه عتابًا، ولم أفهم أنه كان دعاءً خفيًا يحملني بين كلماته.

مرت شهور الغياب وكأنها سنوات، وكأنني عشت عمرًا آخر بعيدًا عنك.

وأنتم يا إخوتي المزعجون...

كيف كنت أضيق بكم، وكيف أصبح صمت الحياة قاتلًا من دونكم، أشتاق لصخبكم، لمشاحناتكم، لمقاسمتي أشيائي رغم تذمري، كم أنا وحيد دونكم...

كم أنا متعب يا إخوتي...

"كلما بحثت عن نفسي في المرايا، وجدت وجوهًا لا تشبهني... وجوهًا صنعتها الأيام وأهلكتها الليالي."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

"المرآة"

وقفت أمام المرآة، أبحث عن نفسي، فوجدتها منقسمة إلى نصفين:

نصفٌ نقي، كأنه ملاك ذو أجنحة بيضاء، عيناه تحملان نورًا يشبه ضحكة طفل رضيع، ضحكته تملأها غمازات، وثيابه تفوح منها رائحة الزهور. يستلقي في جناتٍ من الجمال والأنهار، كأنه وُلد ليبشر بالخير، ليكون رمزًا للنقاء الذي لم تلوثه الحياة بعد.

أما النصف الآخر، فهو بغيض، كأنما خرج من ظلمات الجحيم. تفوح منه رائحة جثة متعفنة تقتل الذباب القادم والهارب، مخالب سوداء حادة تخرج من أطرافه، وأجنحة مظلمة تمتد كليلٍ لا فجر له. عيناه تخيف الظلام، ووجهه مجعدٌ بندبات معارك لم ينسها. لا يبتسم، لا يتحدث. كنت أظنه أصمًا، لكنه يسمع، يفهم، وربما يضحك في داخله ساخرًا من ضعفي.

نحن في معارك الحياة نظل نصفين، بين النور والظلام، بين البراءة والخطيئة. في النهاية، لا أحد ينجو كاملًا.

" احتراقي لم يكن بسببك "

لم يكن بسببك، لم يكن إلا بفعل الوحدة.

تمر الأيام، والسنوات تذوب وأنا عالق في دائرة فارغة، أضيع وقتي في تفاهات وسخافات لا تغني ولا تسمن. مرت أعوام، وأنا ألهو بأحلام واهية، أعيش في عوالم من صنع خيالي، بينما الواقع يمضي بي دون أن أشعر.

أنا من أحرقت نفسي، لا أحد غيري.

بحثت عن الأمان في وحدتي، ظننتها ملجأً، بينما الآخرون يسعون ويتعلمون، يواجهون الحياة ويصقلون أنفسهم، وأنا؟!

أنا الذي تركت نفسي للضياع، أنا الذي لم أفهم بعد كيف تُعاش الحياة. أرى الجميع أقوياء، بينما أتعثر في ضعفي، أجمع شتاتي كأوراق الخريف اليابسة، تتفتت بين أصابعي إن حاولت الإمساك بها، وإن تركتها، تسقط وتذروها الرياح.

لم أترك شيئًا في داخلي إلا وأضعته، حتى نفسي أصبحت غامضة عليّ، كأنها أحد أسرار مثلث برمودا، مجهولة لا أملك فك شفرتها. داخلي عاصف، براكين خامدة لكنها على وشك الانفجار، وأنا، أنا وحدي الضحية.

" الحزن لا يليق بغيري "

ها أنا هنا، أمسك بدفتري في يدي اليسرى، وأحكم قبضتي على قلمي الأسود. أظلل به الشمس حتى رسمت عتمة الليل. طويت آلاف الصفحات الموجعة لي.

الآن، الساعة الواحدة والنصف من منتصف الليل. أضع رأسي على وسادتي ليستريح، لكن عقلي يعج بالكثير والكثير من الذكريات المؤلمة. يضعف قلبي أحياناً ثم يضيق، مع بعض النغزات التي تؤلمه. عيناي تريدان أن تبوحا، لكنني أعلم علم اليقين أن الرجل لا يصح أن يبكي. هنا، في قلبي، نزاعات مسلحة تداوم على قتلي. البعض منها يريد أن أستريح وأبوح، والبعض الآخر يرفض ذلك بشدة. لا زلت أسمع صدى ذكريات قديمة تُدندن في أذني كأنها أغانٍ حزينة لا تنتهي.

أتذكر الوجوه التي مرت في حياتي، بعضها ترك بصمات دافئة، وبعضها ترك ندوباً عميقة. أحيانا، أتساءل: لماذا يصر العقل على استعادة اللحظات المؤلمة بينما يتجاهل الجميل منها؟ لا أملك إجابة شافية. ربما لأن الألم يترك أثراً أعمق، أو لأن الإنسان بطبعه يتشبث بالوجع كأنه جزء من كيانه.

ومع ذلك، أعلم أن هذه الليلة مثل كل الليالي السابقة، أشعر أن الليل يخنقني أكثر. لا أنتظر الفجر، فقد أدركت أنه لن يأتي بشيء جديد. كل يوم يمر، وأنا أزداد غرقاً في بحر لا نهاية له. قد يحاول البعض النجاة، لكنني، هنا، على هذه الوسادة، أسمع آخر ما تبقى من نبض الأمل يتلاشى. الليل ليس عدواً، بل هو مرآة لما أنا عليه:

ظلام بلا نهاية.

أبحث عن وجه يشبهني في زحام العابرين، فلا أجد سوى الفراغ. كأن العالم قفص شفاف... واسعٌ حد الاختناق.

الكاتب/عبدالرحمن العربي

في منزلي جثة

كعادتي، أعود إلى منزلي متأخرًا، تتبعني نظرات النجوم اللامعة كأنها زجاج نظارتي تعكس الضوء، تراقبني بصمت، تحكي لي قصصًا قديمة، أحيانًا تضيء طريقي، وأحيانًا تتركني أغرق في عتمة أفكاري.

أخرج مفاتيحي، الرابط الوحيد بيني وبين هذا الباب الخشبي الذي يحمل آثار الزمن على طلاءه المتقشر، وكأنه يرفض أن ينسى الماضي. دفعت الباب ودخلت... شيء ما كان مختلفًا. الهواء ثقيل، كأن المكان يلفظه، كأنني غريب في منزلي.

وقفتُ أمام الخزانة، توقفت الحركة. الزمن تجمد. حتى الجرذان التي كانت تخاف من ظلي، وقفت الآن تراقب بصمت، تترقب ما سيحدث. حاولت أن أتجاهل هذا الشعور، لكنني شعرتُ بعيون تراقبني، بوجود يزحف في الغرفة.

وحين التفتّ، رأيته.

رجلاً أعرفه... أعرفه جيدًا. المشكلة ليست في معرفتي به، المشكلة أنه أنا. لكن... ألم أقتلك؟

خرجت الكلمات من فمي كأنها لم تكن لي، وكأن الهواء حملها عني. نظرتُ إليه، إلى ذاتي المتهالكة، التي أرهقتها الأيام. كانت عيناه مطفأتين، مسجونتين في دوائر من السواد، شفاهه شاحبة، وكأنها مثقلة بكلمات لم تُقل. ملامحه مألوفة، لكنها غريبة... كما لو كنتُ أنظر إلى نفسي في مرآة محطمة.

تصاعدت ضربات قلبي... أنا أعرف الحقيقة.

هذا ليس إلا نفسي التي قتلتها مرارًا.

"أنا أنت... أنا من مزقت طفولتك.

أنا من حفرت أصابعي على ظهرك، واستبدلت عينيك بعينين لا ترى سوى الأوهام.

أنا من جعل شفتيك تتبدلان كجلد الثعابين، ومن ترك شعرك يتساقط ليملأ كل مشط وكل زاوية.

ألم تقتلني كل ليلة؟ ألم تُنهك روحي حتى صرت جثة؟ ألا تشفق عليّ؟"

عاد الهواء لكنه كان ثقيلًا، يحمل أصداء كلماته. حاولت أن أتكلم، أن أهرب، لكنني لم أستطع. الحقيقة كانت واضحة...

لقد كنتُ القاتل والقتيل.

" ليالي بلا نوم "

رأيت إحدى النجمات تسخر مني، تلمع وكأنها تحاول استفزاز سهري. جلست أثني عليها، لأنها تشبهها في الملامح. لكن الريح، كعادته، يرسل لي رائحة عطر يسجنني، يعبث بعقلي المرهق. أهذا هو عطرها المفضل؟

الأرق ليس مجرد سهرة طويلة مع الذكريات، بل سجن مفتوح بلا حراس، حيث الأفكار تصبح سيوفاً، والتفاصيل الصغيرة تتحول إلى محاكم لا نهاية لها.

تركت عقلي المثقل وسرت نحو غرفتي. استلقيت على سرير يشبه قبراً بارداً. أخذت وسادتي بين يديّ كمن يحاول التشبث بحبل نجاة وهمي. أضم ساقيّ كخنفساء تبحث عن الدفء، لكن البرد لم يكن من الجو. إنه برودة الاشتياق، برودة الوحدة التي تسكن العظام، أحاول أن أهرب بالنوم، لكن الأرق يقترب كظل ثقيل. أنام عارياً أمام الذكريات التي تجس نبض القلق في داخلي، كأنها تتأكد أنني ما زلت هنا، ما زلت تحت سيطرتها.

تذكرت قول الدكتور النفسي: "الأرق ليس مجرد سهرة طويلة، إنه بداية الهلاك." لا أعلم لماذا ابتسمت شفتاي حينها، كأنهما كانتا تتحديان الهلاك أو ربما ترحبان به.

الأرق ليس عدوي الوحيد، بل جسدي نفسه يعاندني. أيعاني مني، أم أنني من يعاني من نفسي؟

" مرضت أمي فمرض العالم "

لم أكن الفرحة الأولى لكِ، ولا أول الساكنين يا أمي، لكنني كنت الأفضل في عينيكِ. أنتِ أخبرتني بذلك. احتضنتني تسعة أشهر دون أن تطلبي شيئًا، بل أطعمتِني من دمائكِ. كانت ضلوعكِ سريرًا لي، وحصنًا يحميني، وأنتِ تتألمين عندما أثقلتُ ظهركِ بحملي، واحتويتِني في منزلكِ الصغير.

يا أول ما رأت عيناي، وأول ما نطق لساني، يا سفن الحنان التي أبحرت إلى شواطئي. كنتِ تمشطين شعري بحب، وكنتِ دائمًا تتذكرين أنني رجل هذا البيت بعد أبي، رغم صغري.

كبرتُ، وتسارعت خطواتي نحو الحياة، لكن الزمن أثقل خطاكِ. كنتِ تنهجين وأنتِ تعدين الطعام، وترتعش يداكِ مع كل لمسة تعب. ثم جاء المرض، ذلك العدو الذي أضعفكِ وسرق ضوءكِ. مرضت أمي، فمرض العالم.

أنتِ من علمتني الصبر والقوة، كيف أتحمل الآن رؤيتكِ تتألمين؟ صوتكِ الذي كان يملأ البيت فرحًا أصبح الآن مختبئًا خلف صمت المرض. وأنا، الذي كان دائمًا يتظاهر بالقوة، أعجز الآن عن النظر في عينيكِ دون أن تخونني الدموع.

كل زاوية في المنزل تحمل ذكرياتكِ. صوتكِ يملأ الأركان، حتى في غيابكِ. لكن الصمت هو الحاضر الوحيد الآن. البيت، الذي كان يعج بالحياة، يبدو خاليًا وكأنه ينتظر عودتكِ.

أشعر بالعجز والقهر. لا أستطيع تخفيف ألمكِ، ولا أستطيع استبدال معاناتكِ بمعاناتي. المرض أخذ منكِ الكثير، لكنه تركني بألمٍ أكبر. لو كان بإمكاني، لكنت تحمّلت كل شيء بدلاً عنكِ.

بدونكِ، أصبح العالم بلا لون، كلوحة شاحبة تنتظر عودتكِ لتعيد إليها الحياة. حبكِ يا أمي هو الأمل الذي أتشبث به. كل لحظة بجانبكِ نعمة، وكل دعائي أن يشفيكِ الله ويعيدكِ إلينا.

في لحظات الصمت، أغرق في بحر الذكريات، وأدعو الله أن يعيد لنا ابتسامتكِ. بيتنا يفتقدكِ، وأنا أعيش في ظلام ينتظر شمسكِ لتشرق من جديد وتنير حياتي.

"أنتِ العالم، فإن ضعفتِ، انهار الكون حولي."

" معتقل نفسي "

كانت تلك الليلة غارقة في لون السماء النيلية، والمياه تُداعب الجسد العاري للقارب كما لو كانت تعتذر له، كأنها تشعر بالثقل الذي لا يراه أحد. الرياح كانت تقتحم أشرعته بقوة، وكلما تمزقت إحدى الزوايا، كان الزمان يتسارع أكثر ليترك ثقبًا يثقل من الحركة.

لكنني أكذب عليك أيها القارئ. أكتب لك بيدي، لكن قلبي لا يشارك، حتى لا تظن أن الكاتب مريض نفسي. لا أعرف لماذا شعرت بالحاجة لأن أكتب لك بعض السطور. ربما لأنني أرغب في الخروج من هذا السجن العقلي، ولكنني هنا، معتقل في داخلي، في زنزانةٍ من أفكاري التي تحيطني من كل جانب.

أبحث عن مخرجٍ من نفسي، لكنني لا أجد سوى الجدران. هذا الفكر يلفني مثل قيدٍ لا يمكنني التخلص منه، والروح تتقيد بماضيها وتتشبث بكل لحظة ضاعت. كل فكرة في ذهني هي حكمٌ بالسجن، وكل شعورٍ هو عزلٌ داخلي، وكل ذكرى هي سجاني الذي لا يرحم.

كنت أرى في الماضي عوالم مفتوحة، لكنني الآن في مكانٍ مغلق تمامًا. هذا القارب الذي يحاول أن يبحر هو أنا. يحاول أن يتقدم، لكن لا مكان للذهاب إليه. لا أفق، لا أمل، لا ميناء، فقط البحر الممتد بلا نهاية.

عقلي يصرخ دون صوت، يركض في دوائر مغلقة. وأنا أتابع نظراته من داخل هذا السجن الذي اخترعته لنفسي. أعيش في حجرة مظلمة، وكل ضوء يدخلها يعمي عيني. هناك صوت في داخلي، لكنه بلا طنين، فقط صمت يخنقني.

أما النهاية؟ لا أدري إذا كانت هناك نهاية. كل يوم يمضي يضاعف من القيود التي أشدها على روحي. لا مرفأ في الأفق، ولا بر الأمان. أنا فقط أبحث عن نفسي في بحرٍ من الضياع، ربما ألتقي بي، وربما لا.

اليوم أتممت عامًا لم أرد أبدًا أن يأتي، ولا رغبة لي في الاحتفال. ولماذا أحتفل وأنا أقترب يومًا بعد يوم من نهايتي؟ لقد أتممت عامي الثاني والعشرين، حيث توقفت الرغبات هنا، ثم توقفت معها الحياة.

" يوم بائس "

في هذا اليوم الذي يفترض أن يكون يوم احتفالي، أشعر بظل ثقيل يحيط بقلبي. عامًا آخر يضاف إلى عمري، ولكنه ليس كسائر الأعوام. شعور الوحدة يزداد عمقًا، وأحس بأن الزمن يمضي بسرعة دون أن أجد الراحة التي أبحث عنها.

في كل عام، كنت الأيام تسرق مني الفرحة تدريجيًا، تاركة خلفها فراغًا لا يمكن ملؤه. الأصدقاء قد ابتعدوا، والأحلام تبدو بعيدة المنال. هذا العيد ليس كسائر الأعياد، بل هو تذكرة لي بأن الزمن لا يعود، وأن الأحلام التي لم تتحقق أصبحت مجرد ذكريات مؤلمة.

يا ليتني أستطيع العودة إلى الوراء، لأجد في طريقي بريق الأمل من جديد، لكنني أعلم أن هذا مستحيل. فكل عام يمضي، يزيد من ثقل الذكريات ويزيد من ألم الفراق.

اليوم ليس فرحة، بل هو تأمل حزين في تلك السنين التي مضت، وأمل ضعيف قد يجلب لي السعادة المفقودة.

"رحلوا واحدًا تلو الآخر، وكأنهم لم يكونوا سوى سرابٍ عبر روحي وترك خلفه صمتًا يُطبق على صدري."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

" عزيزتي ساشا "

أنتِ لا تعلمي كم أنا ممتن لأنني قابلتك في حياتي. لست ذلك الشخص الذي يعجب الفتيات بسبب مظهره، لكن في عينيكِ كنتُ شيئًا مختلفًا. أنتِ الوحيدة التي رأيتني كما أنا، وعينيكِ كانتا ترى فيّ ما لم أكن أراه في نفسي. كنتِ تفرحين حتى بأبسط الأشياء التي أفعلها، حتى لو كانت زهرة صغيرة أقطفها وأنتِ تسألينني بابتسامة: "هل هي لي؟" لم يكن يهمك إن كانت مشتراه أو مقتطفة من الطريق، كنتِ تهتمين فقط أنها لكِ. كنت أستمع إليكِ باهتمام، أفهمكِ حتى في لحظات لم يكن أحدٌ يفهمكِ فيها. كنتِ جميلة للغاية حين تخجلين، وأنا أعشق ذلك، تلك الابتسامة كانت تعني لي أكثر من أي كلمة..

ساشا،

أعلم أن اعتذاري يأتي متأخرًا جدًا، بل أكثر من ذلك، ربما لا يكون كافيًا. أشعر أنني أخطأت في حقكِ بطريقة لا يمكن للوقت أن يمحيها. هل أعتذر عن تصرفاتي التي جعلتكِ تبكين في تلك الأيام؟ أعتذر عن تلك المدة التي تركتكِ فيها وحيدة، تشعرين بالضياع والألم، وأنا كنت بعيدًا؟ كيف تركتكِ هكذا؟ كيف تركت من كانت تملك كل قلبي، وعيني، وكل شيء فيّ؟

أعرف أن الاعتذار الآن لا يعيد الزمن ولا يعود بكِ إليّ، ولا يغير من الواقع شيئًا. ربما قد أحببتِ شخصًا آخر، وربما أصبحتِ أمًا لطفلة، لكنني أريدكِ أن تعلمي أنني نادم على كل لحظة ضاعت بعيدًا عنكِ. وأريدكِ أن تعلمي أيضًا أنني لن أنسى أبدًا تلك العيون التي كانت تنظر إليّ، بأمل وحب لا يفنى.

هل اختفى كل شيء بيننا؟ أم أن الحب الذي جمعنا لا يزال حيًا في مكان ما داخلنا؟ أنا لا أطلب منكِ العودة، فقط أردت أن أقول لكِ بأني نادم، وأنني سأظل دائمًا أحتفظ بذكراكِ في قلبي.

دمتي بخير، حيثما كنتِ..... المرسل.. [إيفان]

" الروح الواحدة "

تفكرين بما أفكر به؟

نعم.

كيف هذا؟ ونحن مختلفون!

نعم، نحن مختلفون، لكن الروح واحدة.

وما الذي يجعل الروح واحدة؟

لأنني أحبك.

لماذا أصدقك؟

لأن المحب لا يكذب على محبوبه أبدًا.

متى أحببتني؟

عندما رأيت فيك الأمان وسند والدي، رأيت فيك الدنيا والحياة معًا. رأيت الجمال والسعادة والنقاء، رأيت الشدة واللين، وفي حزنك حنيتك. رأيت فيك الغربة والقرب، الماء والسماء، نارًا باردة لا تضر، لكنها نورٌ يضيء طريقي في الظلمات. رأيت فيك مسكني وسكني، حين كانت الحياة تتقلب بي.

هذه أنتِ، يا حياة، يا كل الحياة.

" عزيزي إيفان "

مرَّ الوقت كالعاصفة، لا أعلم إن كان عامًا أو أكثر، لكن كل لحظة منه كانت تحمل عبء أنفاسنا الثقيلة، وكأننا غارقون في بحر من الذكريات التي تركتنا نكافحها بمفردنا. ندوب الجروح التي شوهت ملامحنا، قد تمزقت منها أجزاؤنا، لكن ذكراها لا تفارقنا. تتساقط الذكريات حولي كأوراق الشجر الجافة، فأنا ما زلت أستطيع رؤية ذلك الوجع الذي لن يغادرني.

إيفان، عزيزي، أفتقدك كما يفتقد البحر ضوء القمر. أعلم أنك تكتب لي رسائل، لكنك لا تعلم أنني الوحيدة التي تظل تقرأها حتى آخر حرف، لأنني تعلمت القراءة والكتابة فقط لأجلك، لكي أستطيع أن أرسل لك كلماتي، حتى لا تشعر بالوحدة.

أريدك أن تعرف أنني هنا دائمًا، معك، ولو بعينيّ المغلقتين. أحبك كما أحب الورد أول الربيع، حبي لك أبديّ، متجدد، لا يتغير. ابتسم، يا إيفان، ابتسم ابتسامتك التي تشبه فرحة الأطفال حين يرون نجمة لأول مرة، تلك الابتسامة التي تعني لي أكثر من أي كلمة يمكن أن تُقال.

المرسلة.. [ساشا]

"أشرقتِ أنتِ، فأين الشمس؟"

لم تسبح الغيوم اليوم كما اعتادت، كأن السماء احتفظت بمائها احترامًا لعينيكِ. لم تمطر، لم تزأر الرياح، لم يتحرك شيء، وكأن الأرض بأسرها تنتظر ابتسامتكِ لتنطق.

ابتسامتكِ، يا أنتِ، قطرة ماء في صحراء أيامي، لم تروِ ظمئي فحسب، بل أغرقتني، أغرقتني حبًا، وأخرجتني من رماد الاحتراق إلى ضوء الحياة. أنتِ يا أنتِ، ما لا يكتب وما لا يُقال، ما لا يحكى وما لا يُفهم، كأنكِ حرف ناقص في لغةٍ لا يعرفها إلا قلبي.

أنتِ النقطة التي يتقاطع عندها الفرح والحزن، حيث يصبح الغيم ظلًا أحيانًا، وعاصفة أحيانًا أخرى

أنتِ كل شيء، بلا حاجةٍ إلى أي شيء.

" بقايا "

عيناي التي ترى غيري، أذناي التي تسمع بما لم يقله اللسان، ما بكما أخبراني؟ أما زلتما تريان وتسمعان لها؟ لقد رحلت منذ أعوام، أخذت حبر قلمي معها، أخذت عقلي، لم تترك سوى كلمة واحدة فقط، أشتاق.

نعم، أعترف أنني ما زلت كذلك. أراكِ في السماء وفي وجوه بعض الفتيات، ألتفت بلهفة إليهن، أدقق النظر، هذه شبيهتك فقط، لأن لم يفرح شيء بداخلي، ذلك الشيء اللعين، لعين. يدق طبول الدماء، لم تلمع عيني، لم أتلهف الكلمات، لماذا يشتعل جسدي حرارة؟ هذه شبيهتك فقط. لا أعلم إلى هذا الحد يشتاق كلي لرؤيتكِ، يصنع إحداهن شبيهتكِ. أنا أحبكِ إلى الآن، أنا اشتقت إليكِ يا أميرتي الصغيرة

" إلى من غادرتني، ولم أغادرها يومًا "

لا أمتلك الكلمات التي كنتِ تنتظرينها دائمًا، لكنني أملك الذكريات. أتعلمين؟ إنها ما زالت تعيش داخلي، نابضة كأنها حدثت بالأمس. قولي لي، أليس كل شيء ما زال يدور في داخلك كما يدور في داخلي؟

هناك شيء يُلحّ في أعماقي، شيء يود أن يكتب إليكِ رسالته الأولى، لكن الحبر في داخلي جاف. السطور التي أمامي ترتعش كالأمواج، تمنعني من أن أقول ببساطة: "أفتقدك."

وسادتي لم تعد وسادة، بل صارت بحرًا يحتضن مدامعي، يشهد على كل الكلمات التي أخاف أن أبوح بها.

أعلم أنكِ تفهمين. تفهمين لماذا أبدو عاجزًا عن الاعتراف، ولماذا أهرب من القول إنني أحتاجك، او أريدك.

لكن الحقيقة المؤلمة أنني كنت أنا من تركتكِ تغادرين، دون أن أمدّ يدي إليكِ، دون أن أصرخ: "ابقي."

واليوم، أدرك أنني لم أخسرك فقط، بل خسرتني أيضًا.

فكل لحظة كانت تذكرني بكِ كانت في الواقع لحظة أضعتها، كم من أرواح ولدت ولم تكن لنا، وكم من فراق صنع حياة لم تشبهنا أبدًا.

" اللاشيء "

مُتعب من السير نحو اللاشيء، مُثقلٌ بالعمر الذي يمضي بلا وجهة. الأيام على كتفي كجبال تنهك الجسد، وقلبي لم يعد ينبض كما كان، محاصرًا بين أسوار الخذلان. قصصت جناحيّ حين فقدت الأمل، وجلست بين أعمدة الأقفاص، لا أكل ولا أصوم، فقط أرتقب... الأتربة تغطي ملامحي وكأنني صرت تمثالًا منسيًا.

انتهت صلاحية أحلامي، مبعثرة كطعام عالق في حلقي، لا تبتلعها الأيام ولا تلفظها، تنتظر جرعة أمل ترويها... لكنني لا أجد.

يحمل كتفي أكفانًا غير كفني،

والأيام تركض متعجلة، أَلَا تَدري؟

"أمشي، لكن كل خطوة تخونني... كأن الأرض تحت قدميّ ليست سوى أطيافٍ من الماضي، تربطني بسلاسل لا تُرى."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

" ذكرة "

كانت الساعة التاسعة ليلًا، على ما أظن. تتسابق قدماي مع جسدي، بينما يقف عقلي عاجزًا، مُعلّقًا بذكراها.

هنا، على هذا المقعد، حيث كانت تُميل رأسها إلى كتفي، تُعانق يداي وكأنها تخشى أن تفقدني. نظرة عينيها، لتلك الطفلة المجنونة والحنونة، ما زالت تطاردني، كأنها انعكاس لكل ما افتقدته.

أحببتها بكل ما فيَّ، بكل ضعفي وقوتي. وما زلتُ، كما كنت دائمًا أعجز أمامها...

أمام ذلك الفراغ الذي تركته في داخلي. اشتقت إليكِ، حبيبتي، اشتياقًا ينهك روحي ويمزق قلبي.

تذكريني، أنا من ناديتِه "أبي"، أما زلتِ تنتظرين قدومي كما وعدتِني؟

كل ليلة، أمشي نحوكِ في أحلامي، لكنني أستيقظ لأجدكِ سرابًا يختفي قبل أن ألمسه. لم أنظر لغيركِ، ولم أحبّ سواكِ. أتساءل... هل تفكرين بي كما أفكر بكِ؟

هل تشعرين بغيابي كما أشعر بفقدكِ؟

قلبي ينهار تحت وطأة الحنين، والأيام تسرقني من نفسي، لكنها لا تأخذكِ مني. أنتِ الحلم الذي لا ينطفئ، والذكرى التي لا تموت، مهما حاول النسيان أن يخفيها.

" أنجبتُ فتاةً لم تكن مني "

تلك الياسمينة تبتسم إليّ، وتلك العيون تنظر نحوي كأنها تعرفني منذ الأزل، شفتان صغيرتان تذكران اسمي، وكأنهما تعيدان خلقي مع كل نطق. أنجبتِ لي، يا حياة، فتاةً، لكنني لا أعلم إن كنتُ أنا من أنجبتها أم هي من أنجبتني؟

قطفتِ لي من الود والرحمة ما يكفي لأملأ أيامي نورًا، فرشتِ لي طريقًا كبرزخٍ ملون، تمنحني حياةً أكثر إشراقًا. في عينيكِ، أرى نجوم السماء، وفي قلبكِ، دفء الشمس. تشتعل داخلي نارٌ ليست للحرق، بل للدفء والاطمئنان، كأنكِ ولدتِ لتُهديني الأمان.

يا وجه قمري، يا صغيرتي، هل خُلقتِ مني، أم أنا من وُلد منكِ؟ في عينيكِ، أجد نفسي فتىً مطيعًا، يمد يده ليلتقط كل حرف يخرج منكِ، يستمع لأحاديثكِ الطويلة كأنها تراتيل تُنعش روحه. أحتضنكِ، ليس فقط لأضمكِ إلى صدري، بل لأسمح لهمومكِ أن تتلاشى، لأدع دموعكِ تجد في حضني ملجأ، وابتسامتكِ تمتد كضوء الفجر على ملامحي.

حين أضع يدي على خديكِ، أتوه فيكِ كطفلٍ يتأمل عين أمه للمرة الأولى، كأنني وجدت فيكِ سرّ وجودي. ما هذه المشاعر التي تملأني حتى أطرافي؟ لا أعلم، لكني أعلم فقط أني أحبها... وأحبكِ.

" لماذا يرتجف قلبي؟ "

في أحد مقاهي المدينة، تجلس العائلات، تلهو وتفرح الأطفال، مزيج أصوات الملاعق يعزف على سطح الأطباق، تعلو الضحكات التي تخبرك بالبهجة. ترسم تزحلقات الماء على الزجاج أجواء الشتاء، مع بعض الشموع التي تتزين لحبيبين في لقائهما الأول، تلفظ نارها بعض الكلمات الرومانسية، وتنبت بينهما وردة بل أكثر. يبتسم أحدهما، ليفرح قلب الآخر، يعجز لساناهما عن التحدث، يغني لهما الهواء، فتتراقص خصلات شعرها، وتخبره عيناه كم أن عيونها جميلة، ولا تكف عيناي عن النظر.

في أحد طاولات المقهى، أجلس مع كوب قهوة بارد ينتظر أن أنهي حياته، لكنه يصبح مصاحبًا لوحدتي. أتأمل من خلف زجاج النظارة، أراقب كل هذه التفاصيل. لماذا يرتجف قلبي؟ هل تشبه هذه الفتاة حبيبتي؟ قد تكون هي، وقد لا تكون. ربما هي مجرد أوهام تخلقها وحدتي لتخفف عني عبء الزمن. لا أدري، لكن الشعور يبقى مبهمًا.

" أكتب لكِ يا ساشا "

أعلم أنكِ لا تعرفين القراءة، وأعلم أنكِ ربما لن تفهمي ما أعنيه. لكن الكتابة لكِ أصبحت عادتي الأخيرة، ملاذي الوحيد في هذا العالم البارد.

أراكِ في كل المرايا، صورتكِ تلاحقني، كأنها ترفض أن تتركني وحدي. كنتِ دائمًا لطيفة، تُحبين الجميع بلا استثناء. الجميع أحبكِ، حتى أنا... أحببتكِ أكثر مما يستطيع قلبي تحمّله.

لستِ الأجمل في أعينهم، لكن في عينيّ... كنتِ العالم كله. كنتِ دفئي في هذا البرد القارس، والآن لم يتبقَّ سوى صقيع يمزقني.

أما أنا؟ أنا مجرد ظل منهك. ما زلتُ أغضب من أتفه الأمور، أبكي من لا شيء. فارغ العينين، تائه، ثيابي مهملة، ووجهي يكسوه التعب. أدخن السجائر وكأنني أبحث في دخانها عن سبيل للهروب، لكنها لا تأخذني بعيدًا.

عدتُ لعزلتي يا ساشا. اختفى صوتكِ من حياتي منذ عامين، حينئذ وأنا أعيش في صمت قاتل. لا أرى الناس، لا أسمعهم، لا أريدهم. أتسكع وحدي تحت المطر، كأنني أبحث عن شيء فقدته، رغم أنني أعلم جيدًا أنني فقدتكِ.

أترك قهوتي تبرد، كما برد كل شيء بداخلي.

الرغبة في الانهيار تخنقني كل ليلة. أحتاج أن أبكي، أن أصرخ، أن أنهار، لكن حتى البكاء صار رفاهية لا أملكها.

ساشا، إن كنتِ تستطيعين سماعي في مكانٍ ما، أو حتى رؤيتي، أرجوكِ... فكري بي.

لأني ما زلت أبحث عنكِ في هذا العالم، وما زلت أنتظر شيئًا منكِ، حتى لو كان مجرد خيال.

المرسل.. [إيفان]

" لم نُخلق لها "

يلقون الودع قبل الرحيل، وكأنهم يقرؤون مستقبلاً لا يعلمون كم من القلوب ستنزف بعدهم، وكم من الأرواح ستتهشم، تفقد بريقها الذي أضاؤوه بأيديهم.

لو كانوا يعلمون، لاستحوا من الفراق، لكنه يأتي دائمًا كضيوفٍ ثقيلة، لا يستأذنون، يقتحمون كل شيء ويتركون خلفهم دمارًا لا يُصلح.

أعلم أنني في يوم ما سأجد فتاة أخرى. ليست هي من تتحمل جسدًا منهكًا، متعبًا من الحياة.

هي تستحق أن تلمع، كما جعلتكِ تلمعين، أن تحمل بريقًا لا يطفئه الزمان، أن تشرق بالأمل من جديد.

لكن الخوف يعشش داخلي... أخاف أن أكرر ذات الخطأ، أن أتركها كما تركتِني، أن أخنق النور في قلبها كما خنقته في داخلي، أن تذبل كما ذبلتُ أنا.

لا، لا أرغب في الانتحار أبدًا.

لكن الفكرة تتربص بي في الظلام، تراقبني في كل لحظة ضعف، كظلٍ خفي يلاحقني.

هي مجرد فكرة، مجرد هاجس، لكنها تطاردني، تهمس لي في صمتي، في وحدتي، بينما يغرق العالم حولي في السكون.

الفراق لا يقتلنا دفعةً واحدة... لكنه يتركنا أحياءً ننتظر الموت.

" حتى أنت! "

لم أدرك حتى الآن ما الذي حدث. تختلط نظراتي بين الكبرياء والحسرة، بين العتاب والصمت. لكن... أشاهد الدنيا ترحل. حتى أنت... حتى أنت رحلت معهم.

الخريف أسقط أوراقي، وأنت كنت اليد التي قصّت جذوعي، تاركًا إياي عاريًا، بلا ظل ولا حياة.

تبللت عيناي من فرط الحشود المتجمعة على أبوابها، وما زلت أغلقهما بشدة، كأنني أقاوم فيضان الدموع، حتى لا تهرب مني بقية القوة التي أحاول التشبث بها.

بحثت في كتب التاريخ، قلبت صفحاته المتهالكة، فلم أجد سوى كسيلة، وتاريخًا مطبوعًا بالحبر الأسود من الغدر والخيانة، أدركت أن لا شيء أشد ألمًا من الغدر، ولا شيء أكثر قسوة من الخذلان.

عادت بعض الذكريات، تجر معها أنفاسًا مخنوقة، وتضعها على رفوف زمنها المكسور، نظرت إلى أوراقي المبللة، رفعت رأسي إلى السماء، تلك السماء التي أشرق صيفها كعادته، فبحثت عن الغيوم وعن الأمطار. لم أجد شيئًا.

فمتى أمطرت إذًا؟ ومتى جفت تلك الدموع التي تركتني فارغًا، تائهًا بين فصول العمر ورياح الخذلان؟

"أنا بخير، أقولها كل يوم، أرددها كتعويذة... لكن قلبي يسخر مني، وعيناي تخونانى كلما حدقت في الفراغ."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

" لست مريضًا يا أبي "

أحب أن يغمر الليل الهدوء، ليمنحني مساحة أكتب فيها. أحب الشتاء والمطر ورائحة الهواء النقي. أحب مناظر الشوارع المبللة وأعشق الهدوء، لكن ليس لحد الصمت القاتل. أحب الوحدة، لكن ليست عزلة قسرية أشبه بسجن انفرادي. قليل الكلام، لكن عميق الرؤية. أراقب التفاصيل بصمت دون أن أكشف عنها، وأختار الجلوس في أطراف المقاعد الخلفية، هروبًا من أحاديث لا فائدة منها.

أعشق البسطاء والبساطة في كل شيء. أختار الطرقات الخالية من المارة، وأذهب إلى الحدائق العامة، أتجول وحدي بلا وجهة محددة. أسير كثيرًا، أتجنب الزحام، حتى ازدحام السيارات يجعلني أغير طريقي. ولست فقيرًا حين أحمل معي طعامًا من المنزل، لكنني ببساطة لا أطيق رؤية الأطعمة الزاهية التي تخلو من المذاق الحقيقي. أنا فقط شخص مسالم على هذه الأرض.

ولكنك، يا أبي، تراني مريضًا. "لست مريضًا يا أبي."

أختنق عندما أكون وسط الزحام. لدي كثير من الزملاء، لكن الأصدقاء؟ هم ثلاثة فقط. أجلس وحدي، أنظر إلى السماء محاولًا فك ألغاز النجوم، لكنني لا أفهمها. أعدّها واحدة تلو الأخرى، ثم أنسى أين توقفت. أخلق بخيالي خطوطًا تصل بين النجوم، أرسم أشكالًا كما يفعل الأطفال، لكنني لا أصل إلى أي صورة واضحة.

لست مريضًا لأنني لا أملك أصدقاء كثر، أو لأنني أطفئ الأنوار وأبقى مستيقظًا. لست مريضًا لأنني أجلس في غرفتي وأغلق بابي على العالم.

لقد رأيت من هذا العالم ما يكفي لأتعلم تجنبه. نعم، أنا أتجنبه بسلام، وأختار العزلة بهدوء.

"لست مريضًا يا أبي."

" جدران متحركة "

إلى السطور التي سُطرت ولم تُكتب أبدًا، إلى الكلمات التي خرجت بلا عقلٍ أو تفكير، إلى الرسوم التي رُسمت وكان هناك دائمًا ما هو أجمل منها، حتى ذلك الفتى كان جميلاً، وتلك الفتاة كانت الأجمل. لكننا دُرنا، شبابًا ضائعًا، في دائرة مغلقة، دائرة امتصت منا العمر والملامح، سرقت الأحلام من أيامنا حتى استنفدت المشاعر، وتركنا كجدران متحركة، متصدعة، تهالكت من أعباء زمانها.

لا ندم... لا رحمة... لا شفقة على الجروح التي نحملها.

لقد تركنا نحترق أمامهم، لنصبح خلف ظهورهم رمادًا يتطاير في الهواء.

حتى إنني لم ألحظ الدخان المتصاعد منك، أو ربما تعمدت ألا أشم رائحته. لكني لم أبالِ بكِ، اهتمامكِ الزائد بي أهملكِ، امتصصتُ كل الحب الذي في داخلكِ حتى ذبلتِ، جفت جذوركِ وتساقطت أوراقكِ.

كانت السماء في عينيكِ ترعد، وكنتِ تخفينها بابتسامة حتى لا ألاحظ، تلك العينان، اللتان كانتا طيرًا يرفرف في سماء الريف، تلك الابتسامة التي كانت تُفرح الطيور كأنها الربيع نفسه، لكن... ماذا الآن؟

نحن لم نعد نشعر بشيء.

لا بكائكِ في الزاوية المظلمة من غرفتكِ، ولا بانهياركِ كالسقف المنهار فوق جسدكِ.

لا شيء... نحن جدران متحركة، متصدعة، لا أكثر.

"الماضي ليس مجرد ذكرى... إنه ظلٌ يختبئ في زوايا عقلي، يظهر حين أظن أني نجوت منه."

الكاتب/عبدالرحمن العربي

"كبرنا يا بكار... لكن بأي ثمن؟"

ما زالت أغنيتك تتردد في رأسي، كما لو أن الزمن لم يتحرك، كأنها لعنة تأبى أن تفارقني، كأنها جرح قديم لم يلتئم رغم مرور عشرين عامًا. ما زلت أذكر كلماتها، أرددها بيني وبين نفسي، كما لو كنت أحاول إقناع روحي بأنها لم تخطئ الطريق:

"يا بلادي أنا... إمتى أكبر؟"

كبرنا يا بكار، واتسعت منا الحياة حتى صرنا غرباء فيها. ليتنا لم نكبر، ليتنا بقينا في ذلك العمر الذي كنا ننتظر فيه الغد بلهفة، لا بقلق. لكننا لم نجد في الكِبر ما وعدونا به. كبرنا فاتسعت الحياة حتى ضاقت علينا، فصارت أضيق من أن تحتوي أحلامنا، صارت مقبرة للأماني، بحرًا من الخيبات. تعلمنا منك أن نطارد ما نريد، لكننا اكتشفنا متأخرين أن الأشياء لم تكن ترغبنا، وأننا كنا نركض وراء سراب.

كبرت أجسادنا، كبرت عقولنا، لكن أرواحنا ذبلت مثل وردة نسيها أصحابها في صقيع الشتاء. تقلصت الضحكات، خفتت الرغبات، صرنا نجاري الحياة عاجزين عن تحقيق أبسط أمورها. لم يكن الشباب إلا متاهة ضاعت فيها أحلامنا، ولم تكن هذه دنيانا التي حلمنا بها في صغرنا.

أين رشيدة يا بكار؟ أين الأصدقاء الذين كنا نركض معهم في الطرقات؟ غابوا كما يغيب القمر في ليلة شتوية باردة، بعضهم صار مجرد صورة على جدار، وبعضهم تحوّل إلى ذكرى تؤلم القلب. غابوا تحت التراب، أو تاهوا في المنافي، أو بقوا هنا لكن بقلوب مهشمة وأعين فقدت بريقها.

جاء رمضان ولم تكتمل المائدة، جاء العيد ولم نشترِ ملابس جديدة لأحد. صار العيد مجرد يوم آخر في تقويمٍ بارد، لا يحمل شيئًا سوى الحنين، الحنين أثقل من أن يُحمل، وأصبحنا نحن من نردد الأغنية، لا لأننا ننتظر أن نكبر، بل لأننا نتساءل متى توقفنا عن الحلم.

هذه البلاد لم تعد بلادي، وهذا الجيل لم يعد جيلي. أرى الشباب لم يعد يركض خلف الأحلام، بل يجلس في المقاهي يعد ما تبقى من عمره في فناجين القهوة، يحسبون الأيام بدلًا من الأحلام. بعضهم ينتظر فرصة لن تأتي، وبعضهم هرب، رمى بنفسه في البحر، في المجهول، بحثًا عن وطن آخر، عن حياة أخرى، عن أمل لم يجده هنا.

أما نحن، يا بكار، فبقينا هنا، نحمل على أكتافنا أرواحًا متعبة، وننظر في المرآة كل ليلة متسائلين: هل كبرنا فعلًا، أم أننا فقط احترقنا؟

" مرسال من حفيد "

أتذكر ذلك اليوم يا جدي، حين أمسكت بيدي لأول مرة لتأخذني إلى المسجد. كنت صغيراً، أتعثر بخطواتي وأتعلق بثوبك الطويل، لكنك كنت تبتسم وكأنك ترى شيئاً عظيماً بداخلي. حينها، قلت لي: "ستكبر يوماً وتصبح خيراً مني، ستصبح نوراً لبيتك ولنفسك."

لكنني لم أعد كما كنت، يا جدي. لست الفتى الصالح الذي كنت تراه في خيالك، لست تلك الصورة التي رسمتها لي في ذهنك. لم أعد أمام المسجد كما اعتدت، بل فوت صلاتي، صلاةً تلو الأخرى. أصبحت أسير الطرقات، أعاكس الفتيات، وأدخن السجائر. شعرت كأن فتحة الأوزون اتسعت ، واختناق الكوكب صار يثقل أنفاسي.

هجرتني آيات القرآن، لأنني أنا من هجرتها أولاً. لم أعد ذلك الشيخ الصغير الذي كنت تتأمله في عيني، ولم أعد ذلك الطفل الذي كان يهرب إليك ليحتمي بك عندما يعاقبه أباه. لم أعد ذلك الطفل الذي جعلته رفيقه القرآن، وطريقه الصلاة.

يا جدي، حين تلقيت خبر وفاتك، شعرت أن العالم انطفأ. أخذت عكازك يومها، وبدلته بعمودي الفقري. كنت النور لهذا الفتى، لكن النور انطفأ، والظلام صار صديقي.

لا أكتب إليك لأبرر، ولا لأطلب العفو. أكتب لأنني أدرك أنني أضعت الطريق. لكن يا جدي، كلما حاولت العودة، وجدت نفسي أعمق في الضياع.

وماذا لو أن الطريق نفسه بات مغلقاً أمامي؟

" لم أتعافَ منك بعد..."

يا ساكني، يا من تركت بيتك فارغًا داخلي، ظلك ما زال هنا، ومسكنك لم يزل قائمًا، لم يزل مُسكنًا لألمي، وأمانًا كنتُ ألوذ به كلما عصفت بي الحياة. حبًّا خالدًا كنتَ، تتمنى مثله الأخريات، لكنني أنا من حملته، وأنا من لم يشفَ منه بعد.

كأنك دوار البحر، وأنا أول الغارقين. كأنك خاتم فضي عالق في إصبعي بعد أن زاد وزني، لا أستطيع خلعه، لا أستطيع التعايش معه. كأنك ردائي الوحيد، لا أملك سواه، صورة التُقطت في زمن بعيد، وكلما حاولت التقاط غيرها، لم أجد إلا الظل باهتًا، كأن العدسة لا ترى سواك.

لم أتعافَ منك بعد... كأنك إرث تركه لي أجدادي، وصيّة مكتوبة على حجر، لا يمكنني إلا أن أقرأها، أن أكررها، أن أعيشها. كأنك الروح، وكأن جسدي ما زال معلقًا بك، كأننا لم ننفصل أبدًا، أو ربما لم يكن علينا ذلك منذ البداية.

لا خير فيمن ترك حبيبه ورحل، لا خير فيمن تخلّى ولم يترك جزءًا منه ليبقى، أو ليمنحنا القدرة على التعافي منه...

" جثة 45 "

تلك الأفكار التي تولد في رأسي باستمرار، رافضة أن تزين سطور مذكرتي. تلك العوالم تشهد عن كثب ما نعيشه، تلك الأيام التي مرّت، والرياح التي تحمل بعض الأمطار، وأخرى تحمل المعاناة. تحتضن الأتربة والركام، لتحمل أوزارها على الأطفال الذين قصفهم أمل جديد. تلك المشاهد لا تجلب الاطمئنان إلا لمن فقد إنسانيته وعروبته.

لقد حُطمت أزرعي حتى أصبح قلبي بلا أهل، مشردًا في هذا الصقيع القاسي. قصفوا عليّ من أموال إخوتي، حتى ماتوا في فاجعة لم ترحم أحدًا. تلك الأشلاء التي تزعج القلب والبدن، تُفزع من بقي في قلبه جزء من الإنسانية. حتى ابن جاري الصغير، ذو السنتين، أجد فتاتًا من رأسه، وأعينًا بلا جسد، وطفلاً يحمل جسد أخيه في حقيبة.

الوضع أصبح مسيئًا إلى الحد الذي لا يُحتمل. الجثث تملأ المكان، بعضها ما زال على قيد الحياة، وفي الحالتين، تلتهمها الكلاب الجائعة، ونحن أيضًا جياع. تغطي أجسادنا جلودنا لكنها لا تحمينا من سقيع هذا الشتاء القاسي. نحن بلا مأوى، بلا ماء، فقط أعداد لا قيمة لها، ونحن نحيا وكأننا جثث تسير.

" ذو وجهان "

توقفت الحياة هذه الليلة، كأن الزمن فقد رغبته في المضيّ قدمًا. لا نسمع سوى الصمت، لا نرى إلا الضباب، لا نشعر إلا ببرودةٍ تتسلل إلى العظام. حتى الطيور لزمت أعشاشها، كأنها تخشى أن تضيع في هذا الليل الذي لا ينتهي.

البرودة تزحف بلا رحمة، تتغلغل في الجدران، تتسلق الأعمدة، تلامس الأرواح فتجعلها ترتجف. لا فرق بين الليل والصباح، كلاهما بلا ملامح، بلا معنى. الكل يهرب إلى أسِرّته، ليس للنوم، بل هربًا من ثقل السكون، من هذا العبث الذي يسميه البعض حياة.

وفي وسط الضباب، كان يقف هناك، ينظر إلينا بعينين تحترفان الخداع. ظنناه رمزًا للجمال، صدقنا أنه النور، أنه الأمل، ولم ندرك أن وجهه الآخر مخفيّ بعناية. لم نرَ تلك البقع السوداء التي تنخر ضوءه ببطء، لم نرَ سوى ما أرادنا أن نراه.

أجبني يا سارق ضوء السماء... كيف شبهتُك بحبيبتي؟ كيف ظننتك نقاءً وأنت محض ظلامٍ يتنكر في ثوب النور؟

"أنا بخير، أقولها كل يوم، أرددها كتعويذة... لكن قلبي يسخر مني، وعيناي تخونانني كلما حدقت في الفراغ."

عبدالرحمن محمد العربي



كاتب مصري من مواليد 2003، من محافظة كفر الشيخ. طالب في الفرقة الثالثة، قسم التاريخ، بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر – فرع المنصورة.

يعد هذا العمل أولى محاولاته الأدبية، حيث يسعى من خلاله إلى تقديم تجربة مختلفة تمزج بين المشاعر العميقة والصراعات النفسية التي تواجه الإنسان.